السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني

بيعقوب فام

فرويد

عقل فرويد خصب جداً في ابتداع النظريات ، يرسلها ارسالاً كلما وجد حاجة ماسة اليها ، وكلما وجد انها تتفق مع ما يقابله في علاجه من العقبات . انهُ لا يعنى كثيراً بتحقيق هذه النظريات وجمع الادلة عليها من الواقع او من التجارب في المعامل النفسية ، لا يفعل هذا لانهُ لا يؤمن بالسيكلوجية التجريبية كما قدمنا في مقال سابق ، ولا يفعله ايضاً لانهُ معنيٌّ بمعالجة الحالات التي تعرض له دون ان يهتم بالسيكلوجية نفسها كعلم قد ينفع وقد لا ينفع في شفاء الامراض ، وكل ما يهتم بهِ هو هل تنطبق النظرية على تلك الحالة المعينة بذاتها التي يعالجها في وقت معين او لا تنطبق ؟

قلنا في المقال السابق ان بروير وفرويد وجدا صعوبات في تنويم المرضى منها انهُ يستعصي على بعضهم ومنها ان بعض من يتم منهم يصبح مفتوناً بالطبيب ، فخلَّ بروير هذه المعضلة بان ترك هذا الضرب من العلاج تركاً باتاً ، واما فرويد فقد حلها بأن اغفل التنويم من طريقته في العلاج واستعاض عنهُ بشيء يشبههُ قليلاً ويفضي الى النتيجة نفسها ، وهو ان يضع المريض في حالة بين بين ، يجلسهُ على مقعد مريح ، ويوحي اليهِ بالطمأنينة والثقة ، وانهُ حرٌّ في ان يقول ما يشاء من غير حاجة الى التردد او محاولة كبت بعض الخوالج النفسية ، وبعبارة اخرى استعمل فرويد طريقة تداعي الخواطر بدلاً من التنويم ، فوجد انها تنفع في الحالات التي كانت تستدعي التنويم

ونظريته في تداعي الخواطر «Association» هي انهُ لا بدَّ من ان تقود المريض الى الكشف عن علته الاصلية وعمل الطبيب الذي يكون قد ألمَّ بعوارض المرض وعرف تاريخهُ وملازماته هو ان يترقب الخواطر التي تكون لها صلة مباشرة او غير مباشرة بالمرض ، وان يبحث فيما يقصُّهُ المريض عله يجد علاقة بينهُ وبين مرضه ، فيدله على هذه العلاقة ويفتح ذهنه ، ويعينه على ان يضع الاشياء في مواضعها الاصلية من غير مبالغة او مغالاة او اغراق ، والمرض النفسي هو في الواقع نوع من الاغراق والمبالغة في الاهتمام ببعض المشاعر والرغبات

ولكنهُ وجد ان بعض المرضى يغربل تلك الخواطر والمشاعر ويختار منها ما يصرح بهِ وما لا يصرح بهِ ، فيحكم عقله فيما يقول وفيما لا يقول ، فاكان من فرويد الاَّ انهُ سارع ووضع نظرية المقاومة Resistance ليحل هذا الاشكال ، زاعماً ان في المريض شيئاً او قوة او ملكة او سمها كما شئت وهذا الشيء يدفعه لان يداري عن بعض المشاعر النفسية ويحتجزها في قرارة النفس كانهُ يبقى عليها ليوم آخر او لظرف آخر ، او كانهُ لا يملك افشاءها لسبب من الاسباب يجهله هو نفسه في معظم الحالات.

***

اخذ فرويد يبحث في هذا الشيء الذي يبقي على بعض الحقائق ويضن بها ان تعلن فيما بين الناس او فيما بين المريض ونفسه ، اخذ يتساءل عن السر في هذه المقاومة ، ولماذا يقاوم المريض اصلاً اذا كان الافشاء لا يقصد بهِ شيئاً سوى شفاء المريض وردهُ الى حالة الصحة والسلامة . ما الباعث على هذا ؟ وكل الامور تدل على انهُ من حق الطبيب ان يعلم ومن حق المريض لابل من واجبه ان يتكلم

ثم اخذ فرويد يجادل مرضاه ويقنعهم ان يذكروا له كل ما يعنّ لهم من غير ان يتخيروا شيئاً للكلام فيه وشيئاً للضن بهِ ، فكان من المرضى من يقول ان ما يحتجزه هو في الواقع شيء سخيف وتافه لا شأن له في الموضوع ، ومنهم من يقول صراحةً انهُ لا يفضل ان يتحدث فيما توارد على خاطره في تلك اللحظة لانهُ لا يقدم ولا يؤخر في العلاج ، ومنهم من كان لا يقول شيئاً ولكنهُ يتردد في الحديث ويبدو عليه هذا التردد وانهُ يجاهد نفسه في اخفاء شيء بذاته

ولكن ما هذا الذي يصر على التضليل بفرويد ؟ ليس هو المريض بالطبع لان المريض قد حضر ليتعالج وليس ليقاوم الطبيب ويسد عليهِ المنافذ ، لم يأت ليجاهد ويناهض ويرتأي الآراء فيما له شأن في العلاج وفيما ليس له ذلك الشأن . وانما اتى طائعاً مختاراً ليسلم نفسه للطبيب ويخضع لنصحهِ ومشورته ، حار فرويد في هذه الظاهرة زمناً ، واجتزّها زمناً آخر ، واذا هو يتقدم للعالم ، ذات يوم ، بنظرية طريفة ، وهل يفعل فرويد شيئاً سوى ان يقدم للعالم نظرية لأية حالة معينة قد تقع بين يديهِ

ومحصل هذه النظرية انهُ قسم العقل الانساني ، او النفس الانسانية ، او الشخصية ، او سمها كما شئت الى قسمين قسم واعٍ شاعر بما يعمل ، وهو ما يحسه الانسان ويعمل بناءً على مشورته ، عارفاً في الوقت نفسهِ انهُ ينشط ويتصرف اجابة لداعي هذا القسم ، ثم سمى هذا القسم بالواعية Conscious ، وقسم آخر يشعر ايضاً بما يفعل ويريد ، ويعرف الدواعي لهذا الفعل وهذه الارادة ولكنه يخفي جميع هذه عن الانسان نفسه ، ويخفيها ايضاً عن الواعية نفسها ويضن بها ان تعرف في اي حال من الاحوال . ومع ان هذا القسم مستور خفي ، لا يحسه احد ولا يشعر بوجوده

احد الا انهُ يملك من الوسائل ما يجعله يستطيع ان يستخدم الواعية كيف يشاء ومتى اراد ، وهذا القسم اسماه العقل الباطن Unconscious او العقل الباطن هذا له اغراضه وغاياته التي يسعى الى تحقيقها ، وهو يحققها بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ثم يطلب الى الواعية لا بل يأمرها ان تسوّغ هذا التصرف امام الناس وأمام نفسها بأية طريقة تراها مستطاعة له من الاعذار ما يرضيها ويرضي الناس ، هذا شأنها الذي لا يتدخل فيه العقل الباطن ولا يعنى به بحال من الاحوال

ولكن هل حقق فرويد نظريته هذه ؟ هل اجرى عليها التجارب العلمية المطلوبة ؟ هل اختبرها بشكل يقطع كل شك في صحتها ؟ هل يستطيع ان يجزم ان العقل الانساني ينقسم الى واعية ولا واعية ؟ لا بل هل يستطيع ان يجزم بأن العقل الانساني ينقسم اصلاً ، واذا انقسم فهلا يفعل الا بهذه الطريقة وبهذا الوضع ؟ وما هي التجارب العلمية التي اجراها حتى يتحقق من هذا الزعم ؟ اما فرويد فانهُ لم يجر تجارب اصلاً ، ولم يحاول ان يتحقق بوجه من الوجوه من صحة هذه النظرية لا بل نزعم انهُ لا يستطاع التحقق من صحتها بالوسائل السيكلوجية المعروفة لدينا في الوقت الحاضر ، وكل ما نعرفه عنها الآن انها قد تصدق وقد لا تصدق . وكل ما يقوله فرويد هو ان هذا هو الاساس الذي أسير عليه في علاجي ، وأرى انه يفيد ، وأرى انه معقول ، ثم اراى انهُ ينطبق على الحالات التي تعرض لي ، وتستطيع ان ترى صحة هذه النظرية اذا ما دققت النظر في الحالات التي تعرض عليك

ولنسلّم جدلاً بأن هذه النظرية صائبة ، وانها هي الواقع والحق ، فماذا بعد ذلك ؟ ما هو السبب الذي يدعو الى المرض العصبي في هذه الحالة ؟ العقل الباطن يريد شيئاً فيفعله ، يسعى الى شيء فيحصل عليهِ ، ويطلق الواعية على الناس وعلى الانسان نفسه لتسوّغ هذا التصرف او هذه الشهوة ، فأين العقدة في هذا اذن ؟ ولماذا تنشأ العقدة Psychoses or Complex اصلاً في هذا النظام ؟

***

عرضت هذه الاسئلة لفرويد كما عرضت لنا الآن . نحن نقف عندها حائرين ، واما هو فلا يحار لانه يحل هذه المعضلة بنظرية اخرى او بتعديل في نظريته الأصلية ، فقد قلنا ان عقل فرويد خصب في اختراع النظريات فبعد ان قسم العقل هذا التقسيم ، عاد فقسم النفس الى ثلاثة أقسام حتى يستطيع ان يوجد مجالاً للعقدة في المرض النفسي او العصبي ، لان العقدة في المرض العصبي كما لا يخفى هي معضلة لم يجد الانسان لها حلاً معقولاً يريح النفس ويجعلها تتفرغ لشئونها ، وانما هي موضع للنزاع العنيف بين بعض عناصر النفس

زعم فرويد ان العقدة تنشأ من ان النفس تنقسم الى ثلاثة أقسام ، اولها هو النفس المزوعة Id او هي مكمن الرغبات والميول والشهوات ، هذا القسم أناني لا يسعى الا لتحقيق شهواته واهوائه

انه شهوة مستمرة مستديمة ، تطلب شيئاً في كل حين ، وتنزع الى اطفاء غلتها في كل آن ، ليس عنها الا ان تطلب وتلحف في الطلب . لا تفكر الا في نفسها ، وفيما تستطيع ان تحققه لنفسها من المنافع واللذات ، هذا القسم هو في جوهره الرغبة والطلب والشهوة والهوى

وهنالك قسم آخر وهو الشخصية Ego ووظيفة هذا ان يصل فيما بين الانسان وبين الدنيا الخارجة عن ذاته objective التي تحيط به ، بهذا القسم تتصل عن طريق الحواس بالاشياء والاشخاص والآراء ، وبه تتفاعل مع هذه الاشياء والاشخاص والآراء ؛ به نقوم بوظيفتنا في المجتمع ، يأخذنا الى الديوان ، ويقابلنا بالرئيس ويجعلنا نفهم ما يطلبه منا الرئيس ، ويحرص على ان لا نغضب هذا الرئيس ، او نغضب غيره من ذوي النفوذ والسلطان ، ثم به نؤدي ما يطلب منا في الديوان وفي غيره ، ثم يعود بنا الى المنزل حيث نستريح ونستمتع بالحياة

***

لو سكت فرويد عند هذين القسمين لما استطاع ان يحل المعضلة التي اعترضتنا ، لاننا لو سلمنا جدلاً بصحة هذا التقسيم لما استطعنا ان نرى سبباً للامراض العصبية تنشأ في النفس وتعيبها فتعطلها عن ان تؤدي وظيفتها ، فاننا نستطيع ان نرى انه من الميسور جداً ان يكون في النفس قسمان مثل هذين ومع ذلك تعيش بمنجاة عن الامراض العصبية ، تستطيع الشهوة ان تتحق وتنال ما تريد من اللذات المحللة والمحرمة ، وتستطيع الشخصية ان تقوم بوظيفتها من ايصال الانسان بالعالم الذي يحيط به في نفس الوقت ، يستطيع كل من هذين القسمين ان يقوم بوظيفته من دون ان يعطل الآخر ومن دون ان يكون ثمة حاجة الى عقدة تنشأ في نفس الانسان ، وبعبارة اخرى لا يستطيع هذا التقسيم ان يعطي سبباً معقولاً للمرض النفسي

وهنا يأتي القسم الثالث من النفس الانسانية حسبما يراها فرويد ، ذلك القسم عجيب حقاً لانه لا يمكن التحقق من وجوده بأي طريقة علمية فيما نرى . لقد اقترحه فرويد وعلى العالم العلمي ان يقبله او يرفضهُ من غير سؤال او جواب شأننا في معظم ما يتقدم به فرويد . هذا القسم يحل الاشكال في رأي مدرسة التحليل النفساني ، ثم ان هذه المدرسة تزعم ان له وجوداً فعلياً في الواقع ، اما كيف نتثبت من صحة هذه المزاعم ، كيف نثبت وجوده من غير ان يتسرب الى منطقنا الشك فهذا لا يعني تلك المدرسة على الاطلاق . لقد قالت انه موجود ، وقالت ايضاً انهُ ينطبق على جميع الحالات التي تعرض لاطباء هذه المدرسة وكفى ، ليس لهم شأن بالشكوك التي تساورنا من جميع النواحي ، ذلك لان السيكلوجية الاكاديمية سيكلوجية تُرتاب وتشك في كل شيء ما لم تصدمها الحقائق صدماً عنيفاً ، وما لم يتعذَّر عليها الشك بوجه من الوجوه ، ثم يجب ان لا ننسى ان فرويد ومدرسته لا تقيم وزناً للسيكلوجية الاكاديمية اصلاً ، فاذا عليها ان تشك هذه المدرسة او تنكر !

سار فرويد ومدرسته لا يلويان على شيء ، ولا يقيمان وزناً لتلك الاعتبارات ، فرضا وجود هذا القسم فرضاً ، وسمياه النفس العليا Super—ego ، وهو شيء اشبه بالضمير في اللغة الدائمة ، له مثله العليا وهي النفس الانسانية في اعلى مراتبها ، او هو الانسان كما يجب ان يكون ، ليس كما هو الآن في الواقع ، هذا الشيء خاص بالانسان دون جميع الخلائق ، هو عبارة عن المثل الاعلى ، وأقرب تشبيه له هو نظام الاشكال عند افلاطون او كانط Kant's Categorical Imperative ، وهذا نزعة فينا نرث من آبائنا وجدودنا ، ولكنه يسير فينا من الطفولة على مرّ الزمن بشكل من الاشكال ولكن مبادئه والمقاييس الاخلاقية عنده لا تتغير كثيراً ولا قليلاً

* * *

ولنعد الآن الى العقدة او المرض العصبي كيف ينشأ فنقول ان العقدة تنشأ من نشاط هذه الثلاثة الاقسام في النفس الانسانية ، بشرط ان يكون نشاطها في وجهات متضادة ، ويزعم فرويد ان هذا هو الحال مع كل انسان في الوجود عاقلاً كان او مجنوناً ، مريضاً او سليماً ، فهو يقول في هذا الصدد « مرضاي هم الانسانية كلها » فلكل منا في رأيه عقدة نفسية ، او كل انسان مريض في جانب من جوانب النفس ، والانسان العادي السليم خرافة من الخرافات لا وجود له ولا أثر . بالطبع تختلف درجات الصحة والمرض باختلاف افراد الناس ، ولكن كل الناس مرضى على اي حال

وينشأ المرض بهذه الطريقة : — يريد الجزء النزوع منا Id امراً وليكن كبيرة من الكبائر ويلحف في هذه النزعة وتلك الارادة الحافاً شديداً حتى لا تجد راحة او هناءة الا في اجابته الى مطلبه ، فتحاول الشخصية الواعية Ego اجابتها الى هذا المطلب فلا بد وان تصطدم باحدى عقبتين ، قد تصطدم اولاً بالاوضاع الانسانية ، او بالشخصيات الانسانية الاخرى ، فترى ان تحقيق هذه الشهوة متعذر لسبب من الاسباب ، فتعود عليها (على الـ Id) فتخاصمها وتقاومها ، وتستعر بينهما الحرب الى درجة تصيب الانسان بالمرض العصبي

او قد لا تجد من الدنيا الموضوعية Objective World مقاومة في تحقيق نزعة النفس هذه ولكنها تجد هذه المقاومة من النفس العليا فيشتجر الخلاف بينهما وتمرض النفس ، فكأن المرض ينشأ من ان النزعة والنفس العليا تغفلان الواقع كل الاغفال ولا تهتمان الا بنفسيهما . احداهما تريد الشر والاخرى تريد الخير بغض النظر عما تستطيع الشخصية تحقيقه من هذا او من ذاك . ان مطلب هاتين النفسين مطلب خيالي لا يمت الى الحياة الواقعية بسبب ، وما على الجزء السفلي فينا او Ego الا ان يشقى بهذه المطالب الخيالية

والنتيجة ان بكل انسان في الدنيا مسّاً من الجنون . اما فرويد فيقبل هذا الحكم واما نحن فنرفضه

وحدة العمر

لحسن كامل الصيرفي

تعالَ فقد عرفتُ حدودَ نفسي وأدركتُ السعادةَ ملءَ كأسي
تعالَ إليَّ واملأْ رَحبَ جسمي فإني اليومَ لستُ خيالَ أمسِ !

***

تعالَ فهذهِ الدنيا خيالي رسومٌ لم تجمَّلْ بالظلالِ
وأنتَ ملاذُ أطيارِ الخيالِ وأنتَ لريشتي اسمى مِثالِ !

***

تعالَ فقد تحطَّمت الكؤوسُ ومالت من تفاعُلها الرؤوسُ
وتاهت في ضلالتها النفوسُ تعالَ إليَّ تتبعكَ الشموسُ !

***

تعالَ إليَّ يتبعكَ الشروقُ وتلمعُ من خواطركَ البروقُ
فقد سكرَ الظلامُ فما يفيقُ وطال على مناجبكَ الطريقُ !

***

تعالَ ، تعالَ أسمعني غناكَ ! تعالَ ، تعالَ صوِّرْ لي سماكَ !
تعالَ ، تعالَ أشربني ضياكَ فإني اليومَ ظمآنُ ازاكَ !

***

تعالَ فخيرتي اخذتْ تُولّي ! تعالَ فرغبتي بدأت تصلّي
وتنزعُ عن تساميها التدلّي ! تعالَ فأنت اسرارُ التجلّي !

***

تعالَ ، تعالَ طهّرني بنارِكَ وأهلني لأمزجَ في سوارِكْ
تعالَ إليَّ طهّرني وبارِكْ فؤاداً ظلَّ يفنى في جوارِكْ

***

تعالَ فأنقذِ الإيمانَ ممّا يحاول أن يحيلَ الطهرَ إثما
ويمعنُ في اجتذابِ النفسِ رغما فما أقسى الحياة تفيض لؤما !

تعالَ فهذهِ كأسُ الليالي نجومٌ على حفافيها خيالي
وتلمسها يدٌ تدري مآلي فتُقصيني ، وأيُّ يدٍ أبالي !

***

تعالَ فهذهِ اليدُ كم أشارتْ وخامت في الظلام وما توارتْ
وأزعجتِ النفوسَ وما استثارتْ بدأ أقوى تحطمها ، فبارت ...!

***

يدُ الأقدار تزعجني دواما وتشهرُ في سكينتيَ السهاما
وتملأ رحبَ إحساسي زحاما تعالَ خوّل الدنيا سلاما !

***

سأزمُ كوّتي وأظلُّ أرنو الى الأفقِ البعيدِ وأنتَ تدنو
ونورُ الفجرِ يغمرني ويحنو عليَّ صباحهُ وسناكَ يدنو

***

ستسمع أنت أمواج الاغاني تردّدها مزاميرُ الزمانِ
وتخلدُ في الصدى والصوت فانٍ فهل لك ان تخلّد لي كياني ؟ !

***

ستختلف الحياةُ امام عيني تمرُّ طيوفُها وتغيب عني
وتفنى في محيطٍ من تمني وأحلامٍ تلوحُ بكلّ لونِ

***

وما أنا غير طيفٍ من رؤاها تأخرَ حينهُ حتى يراها
ويعرفهُ ضعفها ومدى قواها وتفرحهُ وتبكيه مناها

***

تعالَ فربما جاوزتُ داري فتجذبني الحياةُ الى قراري
فأمشي بين أضواء النهار الى ليلي وبعضاً بي انتظاري

***

تعالَ وفيَّ أحلامٌ ورُوحُ ! تعال وفيَّ أطيافٌ تروحُ !
تعالَ وفيَّ أضواءٌ تلوحُ ! تعال وفيَّ أعطارٌ تفوحُ !

***

تعالَ فقد بلغتُ حدودَ نفسي وأطمعُ أن أحقّق طيفَ حدسي
فهل لك أن تذيب تلوج يأسي وتمزجَ حاضري بغدي وأمسي ؟